عرض لكتاب المرأة المُتَصَوْفة في السـودان – الإرث المنسي

بقلم: عمر محمد الأميّن

+++

اسم الكتاب: المرأة المُتَصَـوْفة في السـودان – الإرث المنسي

دراسة تاريخية: 1504- 2023

اسم المؤلف: دكتور عبد الجليل عبد الله صالح

راجعه: الدكتور محمود شيخ أبيض

الناشر: دار المصورات

+++

المؤلف:

دكتـور عبـد الجليـل عبـد اللـه صـالح، أسـتاذ اللغـة الإنجليزيـة عمـل في عـدد من الجامعـات السـودانية والخليجية. مَعْنيٌ بالتصوف والتوثيق له، ألف عـدداً من الكتب باللغتين العربية والإنجليزية عن التصوف وبعض أعلام التصـوف، كمـا قـام بترجمـة لبعض مؤلفـات الطريقـة السـمّانية إلى اللغـة الإنجليزيـة، وسـبق لنـا عرض بعض مؤلفاته. تخرج الدكتور عبدالجليل عبدالله في جامعة الخرطوم.

++++

يتـألف الكتـاب من 256 صـفحة، ضـمت الإهـداء والمقدمـة وسـتة أبـواب مـع ثبتٍ بـالمراجع وقائمـة بالمقـابلات. تنـاول البـاب الأول (مكانـة المـرأة في

السودان القديم)، وجاء البـاب الثـاني بعنـوان (المـرأة في الفضاء الصُّوفي)، وعرض الباب الثالث (قبس من تـاريخ المـرأة المُتَصَـوْفة في السـودان) وقـدم البـاب الرابع (نماذج من رائدات الأثر الصُّوفي في السودان)، وطرح الباب الخامس (نماذج لشـاعرات صـوفيات من السودان)، وبسط الباب السادس (نماذج لمادحات من السودان).

الإهـداء إلى **شـقائق الرجـال** اللائي ضـربنّ بسـهمٍ وافرٍ في تمكين وتوطيد منهج التربية الصُّـوفي في بلاد السودان.

استهل المؤلف الإهداء بإيراد أبيات الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ذائعة الصيت:

إنَّ النساءَ شقائقُ الذُكْــرانِ في عالمِ الأرواحِ والأبـدانِ

والحكمُ متحدُ الوجودِ عليهمَا وهوُ المعبَّرُ عنه بالإنســانِ

وتفرّقا عنه بأمرٍ عـــارضٍ فُصِل الإناثُ به عن الذكرانِ

استعرضــت المقدمــة الحضــور الاجتمــاعي والــديني للمــرأة في الحضــارة الكوشــية، وتمثــل ذلــك في المشاركة الفاعلة للمرأة في طقوس التتـويج، وكـذلك انتســاب أهــل مــروي للأم قبــل الأب، ففي لوحــات القـرابين المكتوبـة بالخـط المـروي نجـد أن الشـخص يعــرف نفســه بانــه (فلان ابن فلانــة ابن فلان)، كمــا شـغلت المـرأة منصـب العابـدة الإلهيـة زوجـة الإلـه

(آمـون)، وكـانت تشـغل حصـريا العازفـة الإلهيـة للإلـه (آمون). وأظهرت المقدمة أن تاريخ السودان الحـديث حافل بالنساء الصالحات والمتصوفات سليلات بيوتـات العلم والمعرفة ولكن لم تخصص لهن تراجم منفصـلة، بل وردت أسماؤهن ضمن تراجم الرجال سـواء أكـانوا أسلافاً أو أزواجـاً أو أنجـالاً، غـير أن التـاريخ الشـفاهي ذاخــر بسـيّر الكثـير من النسـاء. وللمــرأة المُتَصَــوْفة حضور معتبر وصادق في المجتمعات الصُّوفية، فحيثمـا وجد مسيد وجدت المرأة المريدة والسـالكة والراويـة. ويقول المؤلف كان لهنّ حضور ملفت في المجتمعـات المُتَصَوْفة منذ دولة الفونج وحتى اليوم، وهو مـا دفعـه وشجعه للغوص في هذه التجربة وتسليط الضوء عليها وكيف تغلبت على المعوقات الاجتماعيـة والدينيـة. بـدأ تعليم البنـــات متزامنـــا مـــع تعليم الأولاد من خلال الخلاوي، وباشــرت بعض النســاء العمــل مقرئـات في الخلاوي، مثــل فاطمــة بت جــابر ومــريم الميرغينــة والكتاتيب الدينية في سواكن والشيخة أم حسـون بنت الشيخ سلامة الضبابي (والدة الشيخ دفع الله العركي) التي كانت مقرئة في خلوة والدها.

تم تبويب حضور المرأة المُتَصَوْفة في هذا الكتاب إلى ثلاث فئـــات: (1) المــــرأة الصـــالحة، و(2) المــــرأة الشاعرة، و(3) المرأة المادحة.

يتناول الباب الأول مكانة المرأة في السودان القــديم، وتطــرق للمكانـــة الاجتماعيـــة والدينيـــة للمــرأة في الحضارة الكوشية القديمة وفي مملكـتي نبتـه ومـروي حسبما أوضحته السجلات والألواح الأثرية وفي كتابـات هــيرودوتس، حيث عكس اهتمــام الملــوك بأمهــاتهم

وزوجـاتهم وأخـواتهم وتخصـيص مكانـة لهن في هـذه المناسبات المكانة السامية التي كانت تشـغلها المـرأة في مجتمعهم، وأنهـا كـانت تتـولى وظـائف دينيـة وسياسية وحربية، مثل إشـارة الملـك تهارقـا في لـوح الفيضان إلى قدوم الملكة الأم (أبار) لحضـور طقـوس تتويج الملـك. وقـد بـنى التَّصَـوُّف في حقبـة السـلطنة الزرقاء في السودان على ما وجـده من إرث روحـاني في التعامل مع المرأة، لكن هذا الموقف تغـير وانقلب مع دخول الخديوية المصرية مصـحوبة بالفقـه الـتركي القائم على نظام الحريم والفصل بين الرجال والنسـاء وكذلك مع تأثير الحركة الوهابيـة القادمـة من الحجـاز، حيث أثـر ذلـك سـلبا على المُتَصَـوْفة ومـوقفهم من المـرأة، إلا أن التوسـع في تعليم المـرأة في النصـف الثاني من القرن العشرين صوب هـذه الأوضـاع وأعـاد للمرأة اعتبارها ورسخ حقوقها ومكانتها.

يعرض الباب الثاني للمرأة في الفضاء الصُّـوفي، وقـد جاء في عدد من العناوين الفرعية تناول كل واحد منها جانبا من جوانب الفضاء الصُّوفي.

- موقف التَّصَوُّف من تصوف المرأة: رأى المُتَصَـوْفة أن المراتب الروحيـة مفتوحـة للمـرأة كمـا للرجـل، فالإنسان ذاتٌ أمام الله، لا فرق بين واحـد وآخـر لا بالجنس ولا باللون ولا بالسـن، التفـاوت هـو مرتبـة القرب من الله؛ فلم يكن علم التَّصَوُّف والمقامـات والأحـوال علمـا خاصـا بالرجـال دون النسـاء. وقـد أظهـر الحفـر حـديثا في الـتراث فاعليـة ومشـاركة المرأة في صنع حضارة الإسلام، حيث سلط الضـوء على مساهمات ومشاركات النساء في سوح الفقـه

والحديث والرواية وكذلك من جلسن للتعليم ونقل المعرفة لأجيال من طلبة العلم علاوة على من بذلن المال والحلي في تأسيس الأوقاف والمساجد والمكتبات العامة عاتقاً بعاتق مع الرجال لا تفاوت إلا بمقدار البذل ومدى القبول والتوفيق من الله سبحانه وتعالى.

- صورة المرأة بين التَّصَوُّف الفلسفي والتَّصَوُّف الفقهي، بالرغم من أن المنهج الصُّوفي أتاح للمرأة موقعاً متميزاً مقارنة بمناهج التديّن الأخرى إلا أن موقف الصُّوفية هذا لم يكن دائما متفقا عليه في بيئتهم، فهنالك مدارس صوفية لها رؤية مختلفة، ولهذا صنّف الباحثون الوضع إلى قسمين: (1) وضع المرأة في التصوف الفلسفي و(2) وضع المرأة في التصوف الفقهي. ويقف الشيخ محيي الدين بن عربي – الذي أحدث ثورة مفاهيمية في موقفه من المرأة -على رأس التَّصَوُّف الفلسفي، والذي يرى أن الإنسانية هي الحقيقة الجامعة للرجل والمرأة ولم يكن للرجال على النساء درجة من حيث الإنسانية. وتجد المرأة في التَّصَوُّف الفلسفي وضعية مريحة تعزز حريتها الدينية، ولهذا حققت بعض النساء حضورًا بارزًا كسرن به حاجز الهيمنة الذكورية في مجتمعاتهن. فنور الروح لا يؤنث ولا يُذكّر.
- أما التَّصَوُّف الفقهي فقد تبنى رؤية أن المرأة رمز للغواية والفتنة وعقبة أمام بلوغ الولاية والصلاح، واعتبر أن التعلق بالمرأة حتى عن طريق شرعي مرادف للانغماس في الدنيا، بل إن بعضهم نظر

للـــزواج كعــائق لبلـــوغ الــترقي الـــروحي، ومن ثم تشكل المرأة كائنا ينبغي النأي عنه لتحقيق الكمال.

- تجليات المرأة الصـوفية: تضـم موسـوعات التـاريخ الإسـلامي وكتب الـتراجم أخبـار النسـاء العابـدات والمتصوفات، ومع تصـاعد الاهتمـام مـؤخرا بـالفكر الصوفي والمـرأة المُتَصَـوْفة صـدرت العديـد من الكتب والدراسات باللغة العربية وباللغـات الأجنبيـة التي تتناول حضور المرأة في الفضاء الصوفي وهي حافلة بأخبار هؤلاء النسوة، وقد أخــذ الكثـيرون من أعلام المُتَصَوْفة من بعض النسـاء ذائعـات الصـيت، كم تحتوي الكتب الكثير من أقوالهنّ ومقولاتهنّ.
- المرأة المُتَصَوْفة ودورها كأم وزوجـة: مثلت الحيـاة الاجتماعية والواجبات الأسرية والمنزلية بما تشـمله من مســؤوليات وضــروريات تحــديا كبــيرا للمــرأة المُتَصَوْفة، ولكنها بإدراكها لمفهـوم الاسـتخلاف في الأرض كــانت تقــوم بواجباتهـــا الأســرية والعائليـــة وتحافـظ على أداء العبـادات والأوراد والأذكـار على النقيض ممـا هـو الحـال في المسـيحية حيث تتبتـل الراهبة وتغلق باب الاستخلاف في الأرض.
- المـرأة الوليّـة: إن فضـاء التزكيـة والـترقي سـالك للنفس الإنسانية إناثاً وذكرانا، وقـد سـجلت أدبيـات التصوف ذكر العديد من النماذج الحية للنساء، ذلـك أن تيار التصوف الفلسفي كان متصالحا مع انخراط المــرأة داخلـــه فهي الأم والـــزوج والأخت والبنت، فكـانت روح الأنـثى حاضـرة أمـاً ومربيـة ومرشـدة وزوجاً. ونستشـف من ذلـك أهليـة المـرأة للعرفـان والقرب الإلهي ومشروعية أخذ الرجل عنها، وتربيته

في مجالسـها، وتأدبـه بمسـلكها ونهجهـا، حيث تم التطرق إلى سيرة الزاهدة الشهيرة رابعـة العدويـة كمثـال متـألق بهي، وأنهـا هي الـتي نقلت التصـوف من الزهـد إلى العشـق الإلهي، وأنهـا وقفت رأسـا بـرأس مـع أعلام التصـوف في عصـرها، كالحسـن البصري والجنيد وإبراهيم من أدهم؛ كما نجـد أيضـاً فاطمة بنت المثنى القرطبي مرشدة ومربية الشيخ ابن عربي، والتي نوه بذكرها وبفضلها وأثـني عليهـا كمرشدة ومربية له الشيخ الأكـبر. وفي مقابـل هـذا الإطـراء والثنـاء هنالـك مرويـات ومؤلفـات تمثـل موقـف التصـوف الفقهي، ويجسـد كتـاب "قـوت القلـوب" لأبي طـالب المكي خـير مثـال لـذلك، فـالمرأة هي رمـز النفس الأمـارة بالسـوء، وهي الحجاب الذي يقطع على المريد سيره إلى ربه!

يتناول الباب الثالث قبس من تاريخ المـرأة المُتَصَـوْفة في السـودان، حيث بـدأت الخلاوي في تعليم النشـء من البـنين والبنـات، ولقـد نبغت في فـترة الدولـة السنّارية نساء صار يشار إليهن بالبنان، وحسب التاريخ المعلوم للشيخ بابكر بدري فـإن ذلـك يرجـع إلى أكـثر من ثلاثمائة وعشرين سـنة واسـتند هـو على ذلـك في تعضيد قناعته وموقفه من تعليم النسـاء. وبـالرغم من أن كتاب الطبقات لم يورد تـراجم للنسـاء إلا أنـه كـان حريصا عند الترجمة لشيخٍ ما على الإشارة إلى والدتـه وكذلك ذكر بعض بناتـه. شـجعت المهديـة خلاوي تعليم القـرآن وتعليم البنـات والبـنين، ثم حـدثت النهضـة الحديثة وأبرز سماتها هي خروج الأخوات الجمهوريـات بعد الإرشاد والتربية لتوزيع كتب الأستاذ محمود محمـد

طه والاشتراك في النقاش العام وغـيره. اتـاح الفضـاء الصوفي في السودان للمرأة مكانة مرموقـة وأنصـفها أيمــا إنصــاف؛ وفيهنّ من خلفت والــدها في الســجادة بالرغم من وجود إخوتها الذكور.

وهذا هو الشيخ فرح ود تكتوك يدعو لتعليم المــرأة في زمــان كــانت المــرأة الأوربيــة مطعونــا في إنســانيتها ومرفوض تعليمها، يقول الشيخ:-

وعَلِمْ لما ملكتْ يداك عقائداً كذا أصْلُ الطريقةِ لا تَذَرْ

بناتٍ وأبناءاً شباباً عجائزاً خديماً وحُرَّاتٍ كذا عبْدُكَ الذَّكر

ونشر الإسلام مفهوم أن النساء شقائق الرجــال، وقــد رفع الإسلام قــدرها من ضـعةٍ وأحياهــا من وأدٍ وجمّلهــا وزينّها وكمّلها، وصيرهنّ شقائق الرجال في كل شيء، ونجد في القرآن الكريم صفاتهن كما صـفات الرجــال، فهي المسلمة والمؤمنة والقانتـة والصـادقة والصـابرة والخاشـعة والمتصـدقة والصـائمة والحافظـة لفرجهـا والذاكرة.

ثم تناول المؤلف رجالاً عرفوا بأمهاتهم وأورد مجموعة ممن عرفــوا واشــتهروا بأســماء أمهــاتهم وكــذلك من تكنوا بأسماء بناتهم وعرفوا واشتهروا بذلك.

ثم ســلط الضــوء على موقــف المناصــرين لُتَصَــوْف المرأة من المرشدين والمربين الـذين قـادوا مبـادرات الدفاع عن المرأة كلٌ في زمانه ومجتمعه، وأورد فيهــا تــراجم وافيـة عنهم مثـل الشـيخ حمـد ود أم مريـوم - والذي يعتبر بحق رائـد تعليم المـرأة في السـودان، ثم

شيخ بدوي ود أب صفية، والشيخ محمد علي العجيمي، والشيخ محمد الصابونابي والشيخ عبد الرحيم البرعي، والشيخ الشريف أبو القاسم محمد أحمد بانقا.

جاء الباب الرابع تحت عنوان: نماذج من رائدات الأثر الصوفي في السودان. في هذا الباب صنف المؤلف النساء المتصوفات في السودان إلى ثلاث مجموعات بناء على ما وثّق له: المرأة الصالحة والمرأة الشاعرة والمرأة المادحة. إن التراجم لم تنصف المرأة المُتَصَوْفة وغمطت حقها! وحتى عندما يرد ذكرها فإن ذلك يتم عبر الإشارة إلى من قرأ عليها أومن تزوجها أو من أنجبته، إلا أن الذاكرة الشفاهية حفظت لنا الكثير من السيّر والتراجم لهنّ.

أورد المؤلف بعد ذلك تراجمٍ لعددٍ من النساء الرائدات، تجاوز عددهن (30) بدءاً من عصر السلطنة الزرقاء مثل بتول الغبشا وزينب نقاوة بنات الشيخ بانقا الضرير (مع ملاحظة أن الشيخ هو ثاني شخص سلك الطريق على تاج الدين البهاري، وهذا يوضح أن تربية المرأة المُتَصَوْفة كانت متساوقة مع إرشاد الرجل في حينه) وحتى العصر الحديث.

استعرض الباب الخامس تراجم للمرأة المُتَصَوْفة الشاعرة مع إيراد نماذج من نظمهنّ، وقد ترجم لعدد (20) منهنّ، بدأها بالشاعرة حاجة أسماء شاعرة الأستاذ الشيخ عبد المحمود وحتى عصرنا هذا. (*وننوه أن في طابت تقليد ثابت ابتدأه الشيخ الجيلي الحفيان وهو استهلال الإنشاد بحضرة الخليفة في لقاء اختتام*

حلق الذكر في مواسم الأعياد والرجبية والمولد بمسدار (الجدع السديس) لحاجة أسماء شاعرة الأستاذ الشيخ عبد المحمود ثم يعقبه بقية المنشدون فلها حضور مقدم في كل المواسم.).

تناول نظمهنّ ثلاث أغراض، الغرض الأول مدح المصطفى ﷺ ورواية سيرته وصحابته، والغرض الثاني هو قصيد القوم وهو الذي يتناول مقامات التربية والسلوك ومدح المرشدين والمربين والحث على الذكر والعبادة، والغرض الثالث جاء في الرثاء، حيث وردت ضمن ذلك مراثي للسيد على الميرغني والشيخ الجيلي الحفيان والشريف أبو القاسم. جاء نظم الشواعر الأول ورواياتهن بالعامية السودانية أما بالنسبة للشواعر المعاصرات فقد نظمن بالفصحى وبالعامية السودانية على السواء. ويلاحظ أن النظم والرواية بالعامية السودانية استصحبت ثقافة النساء فنجد الإشارة للمصطفى ﷺ أحيانا "أبو فاطمة" "وأبو الزهراء" و"أبو البتول" و"ود مكة" و"ود آمنة" عرض الباب السادس نماذج لمادحات من السودان حيث تناول سيرة الثنائي سيدة وصفية وترجم للمادحة فيحاء محمد علي، وكيف تمكنت المرأة من النفاذ إلى عالم كان حكرا على الرجل.

ثم تعرض لتجربة المرأة المُتَصَوْفة مع التكية في السودان وأنها تجربة ضاربة في القدم، وكيف أن المرأة هي قطب الرحى في حركة التكية وأعمالها.

وُفِقَ المؤلف أيما توفيقٍ عندما استهل الكتاب بأبيات الشيخ الأكبر ابن عربي، ذلك أن هذه أغنته عن الجدل

والسجال والحديث عن التفرقة والمساواة بين الرجـل والمرأة وما يترتب على ذلـك من جـواز أو عـدم جـواز تصـوف المـرأة، حيث أن الأبيـات الشـعرية طـرحت مفهوما تجاوز ثنائية الجدل بين الـذكر والأنـثى وارتقت بالجميع إلى عالم الوجود المعبّر عنه بالإنسـان، والـذي أشار إليه المصـطفى بقولـه:" إنمـا النسـاء شـقائق الرجال".

- يمثـل الكتـاب بـادرة نوعيـة بتسـليط الضـوء على حضور منسي أو مُهمل للمـرأة في الحيـاة العامـة كصنوٍ للرجل.
- بإيراد المؤلف لتراجم عن النساء المتصـوفات في السلطنة الزرقاء يكون قد أنجز واستكمل ما تركه ود ضـيف اللـه في كتـاب الطبقـات. كمـا أنـه قـد سلك اتجاهـاً مغـايراً لنهج ود ضـيف اللـه الـذي لم يـترجم لأحـدٍ من معاصـريه، نجـد هنـا بين دفـتي الكتـــاب تـــراجم لشخصـــيات معاصـــرة بـــل إن المعلومـــات المتعلقـــة ببعضـــهنّ أخـــذت منهنّ مباشـــرة. كمـــا زين الكتـــاب بعـــدد من الصـــور الفتوغرافية لعدد من القباب ولعدد من المرشدين والمــربين من الرجــال علاوة على صــور للعديــد ممن ترجم ووثق لهنّ من النساء.

الكتاب لا غنى عنه لطلاب علم الاجتماع وللمهتمين بـه ولدارسي تاريخ التعليم والثقافة العامة، كما أنـه يمثـل ذخـيرة طيبـة ومـادة دسـمة للناشـطين والناشـطات والمدافعين عن المرأة والمطـالبين بحقوقهـا؛ وحقيـقٌ باحتلال مكانه في مكتبـات الجامعـات ودور العلم وفي المكتبات الخاصة.

*{مـاذا لـو فكـرت الناشـطات والناشـطون باسـتخدام عبارة "**شقائق الرجـال**" الـتي تفـوق وتـرتقي على الكلمات المعرّبـة مثـل الفمينيسـت والجنـدر الشـائعة والمستخدمة حالياً !!}.*

++

الكتاب متاح في معرض القاهرة الدولي للكتاب- جناح دار المصــورات، وقــد صــدرت النســخة الإنجليزيــة متزامنة مع صدور النسخة العربية، وهي بعنوان:

The Forgotten Legacy of the Sudanese : Sufi Woman

Historical Study- 1504-2023

الكتابـــــــــان على موقـــــــــع أمـــــــــــزون: https://www.amazon.com./dp/BOCKHVL759

عمر محمد الأمين

وأدي شعير – الجزيرة- السودان

2024 /07/01